ليث حجازين

اِنْهَضْ!

إِذا نَوَيْتَ هَدَفَاً ضَمِنْتَهُ

AUSTIN MACAULEY PUBLISHERS™
LONDON * CAMBRIDGE * NEW YORK * SHARJAH

زائـرٌ جديـد لكوكـب الأرض

من ذا الذي صفعني على مؤخرتي؟ إنه يؤلم، ما هذا؟ أين أنا؟ ماذا تفعلين؟ أرجوكِ أن تتوقفي! إنكِ تشعرينني بالدوار، نعم أشكرك على ما فعلتِ بالحقيقة، أحسنتِ عندما لففتنِي بهذا الغطاء، سأنام الآن.. إنني أشعر برغبة شديدة في ذلك.

أبٌ وأمٌّ وأختٌ وأخٌ وجدتان هنَّ أخوات، وجدٌ وأَعمامٌ وعماتٌ وخالاتٌ وأَخْوال وأبناؤهم، ما كل هذا؟ نعم إنهم جميعاً أقاربي، إنه أمرٌ جميل مثلي تماماً، الطفل اللطيف الذي هو بمثابةِ زائرٍ جديدٍ لكوكب الأرض، والجميع يبارك ويهنّئ الوالدين على الفرد الجديد المنضمّ للعائلة ويرحَّب بحضوره المرتقب منذُ 9 أشهر.

نعم هذا بيتي، هؤلاء يحبونني، أشعر بالأمان فأنا بأيديهم الأمينة. الحليب لذيذ، الأحضان دافئة، القُبَلُ حارة، النوم عميق، وكل شيء مذهل! نعم مذهل! بكل ما للكلمة من معنى.

كما إني لستُ مطالباً بشيء، الجميع بخدمتي وقيدُ الطلبِ، والكل يهبُّ لفعل أي أمرٍ أحتاجه. كل ما عليَّ فعله فقط هو أن أَكُفّ عن البكاءِ، أو بمقابل بسيط جداً يكون بِإيمَاءةٍ خفيفةٍ أو ابتسامةٍ رقيقةٍ.

ومع مرور الوقت أصبح الآن يُطلبُ مني أن أسير على قدميَّ وأن أتحدث مثلهم وأن أنطق أولى كلماتي، إني أرى في أعينهم كمَّ الترقب لقدوم تلك اللحظة التاريخية التي سأقول فيها بابا وماما وتيتا، بل يكفيهم أن تكون "بَه ومَه وتَه".

المحامي الأول لهذا الطفل هو الجدّة، فلا أحد يستطيع أن يزعج أو يمَسَّ هذا الصغير الأشقر بسوء، إنه باختصار خاصتها، ومن يزعجه فإنه يكون قد وضع نفسه في مواجهة جبروت الجدّة العظيمة وجهاً لوجه، أنصحك ألا تفعل يا عزيزي! أحذرك! الجدّة دائماً ما تكسب! ألا تعلم أن هذه مسلَّمةٌ؟! إياك أن تفكر بالأمر! عُد أدراجك، اعترف فوراً بالهزيمة أمام الجدّة وارفع الراية البيضاء! المعركة منتهية حتى قبل أن تَبدأ؛ إنها ملاكه الحارس!

يكبر الطفل هذا بكنف عائلته ويتسع إدراكه شيئاً فشيئاً ليبدأ التعامل مع محيطه ويفعل أشياء بسيطة بنفسه. الكُلّ يراقب، الكُلّ يتغزل به ويطالبه أن يكبُر، وعندها تُزرَع الفكرة

بعقله مثلها مثل العديد من الأفكار المسيطرة على العائلة والسائدة فيها. إنها فكرة أن يكبر لِشَيْء جميل، وتبدأ لديه الرغبةُ بأن يصبح كبيراً كأخته وكأخيه على أقل تقدير، وأن يزداد عدد الشموع على تلك الكعكة.

ما هذه القِطَّة؟ إنها تلعبُ معي، ما أجمل هذا العصفور، وما أرقَّ صوته! أحب أشعة الشمس! أحب الصيف وأستطيبُ الماء والطعام. لماذا تسمَّى هذه الصغيرة نملة؟ ماذا تعني السماء؟ ماذا يعني أَنَّ أبي وأمي يذهبان للعمل؟ ماذا تعني نار؟ ماذا يعني ألوان؟ ماذا يعني دكان؟ ماذا تعني ملابس؟ ما هو الاستحمام؟ لمَ أشعر بألمٍ في فمي؟ ماذا يعني أن أسناني ستبرز عما قريب؟

هذا الصندوق اسمه التلفاز، يلفتني ما يعرض عليه من أفلام كرتون وخصوصاً كرتون القط والفأر. نعم... هذه من أكثر الأشياء التي تعرَّفتُ عليها وأحببتها. إنها دائرية الشكل ويسمُّونها كرة. فعلاً أحب أن أركلها بقدمي، أحب أن أسير على قدمي، وأشعرَ أنه بإمكاني أن أزيد من سرعتي. لا يهم وإن تعثَّرتُ، فما أريده يجب أن أفعله، ما أرغب به يجب أن يحصل لي! كل شيء أريده يجب أن يتوفر لي؛ ولدي مخزونٌ كبير من النشاط.

كبر الطفل عاماً تلو الآخر، وبدأ يدرك أكثر قليلاً وصار يُطلبُ منه أن يفعل بعض الأشياء، كما أنَّ قائمة طعامه قد ازدادت وتنوَّعت.

هو ما يزال محور اهتمام الجميع، وبدأ يدرك بالتدرج الأشياءَ من حوله. عالمه صغير بحجم بيته، أبطاله قلائل، على رأسهم أبوه وأمه والجدّة. من الواضح أنهم يخافون عليه ويحبونه بكل صدق، ولذلك لا بدّ أن يسمع كل ما يقولونه له، فهم يعرفون مصلحته بالضبط، فما أمامه إلا أن يسلمهم إرادته بالكامل إلى حين أن يكبرَ ويصبحَ كأبيه يتحمّلُ المسؤوليات، فيقدر عندها أن يحمل مسؤوليته بنفسه.

بالمناسبة كنتُ أتحرّق شوقاً لقدوم هذه الأيام التي أكون فيها كبيراً وأتحمّل المسؤولية. فقط أريد فرصتي، أرجوك يا أبي أريد أن أتحمل مسؤولية، أن تطلبَ مني أن أحضر لك كأساً من الماء البارد، وأعدك بألا أترك أثر نقاط على طول الطريق من الثلاجة إلى حيث تجلس، وأتعهد بألا أُسقِطَ الكأس فينكسر.

دعيني أنَلْ ثقتكِ العظيمة يا أمي وإيذني لي بإمساك الممسحة في المطبخ وقت الإفطار، لأمسحَ الشاي المسكوب على الأرض من ذاك الكوب الذي أسقطه ابن عمي عن الطاولة، فقد ارتطم رأسه به حين تلقّى لطمة قوية على خدّه من أمه أمامنا

بعدما استفزها. اعذروني لا أذكر بالضبط ما كان سبب استفزازه لها، لا يهم، المهم هو أنني لمحتُ نظرة الانكسارِ والإحراج على وجههِ أمام الجميع. وتطول قائمة طموحاتي للمسؤوليات التي أتمنى أن أتحملها، ولكن يبدو أنه ما زال الوقت مبكراً.

يا إلهي إنه يومٍ جميل! لقد قرَّرَتْ جدتي أن تأخذني بصحبتها إلى السوق، كم أنا سعيد! تعطيني جدتي أحياناً بعضاً من النقود وتطلب مني أن أعطيها للرجل صاحب الدكان فيعطيني هدية. ومعظم الوقت تلعب معي الجدّة، وتسمح لي بالبقاء معها بالمطبخ وهي تطهو طعام الغداء. آه! يبدو أن جدتي هي ملاكي لأنها تثق بي كثيراً وتدافع عني إذا ارتكبت أي خطأ، ولو وصل لحد كسر مزهرية!

لقد أصبحت أمشي بحرية وأستطيع لعب الكرة الآن، كما قد أصبحت لديّ صداقات مع أقراني من أبناء أقربائي. ما هذه الحياة الجميلة! لا أرغب بالنوم أبداً من شدة حماسي وفرحي بحياتي. أنا سعيد وممتن لأني جئتُ لها، إنها مثالية بشكل متكامل.